المدينة الحديثة:
أجواؤها وبيئاتها

سابا شبر

يدور موضوع البحث في هذا المقال حول البيئة ومدى ارتباطها بالمدن ، وحول طبيعة هذه البيئة ونوعها وجوهرها . وما البيئة في الواقع الا ردود الفعل التي تتكون لدينا عن المدينة التي تهمنا ، وهي كذلك نوعية ودرجة هذه التفاعلات التي تشكل عقدة القضية. ان المهم في الامر هو لماذا تكون ردود الفعل عندنا بالنسبة للقاهرة ودمشق ولندن ونيويورك ، مثلا ، مختلفة تماما .

ان المدن ، خاصة في هذه الايام ، تواجه موجات متلاحقة من التطور والنمو وتتكيف حسب الظروف التي يفرضها ازدياد عدد السكان والنمو الاقتصادي وتغير التقنولوجيا . ولكي يكون هذا البحث مجديا علينا ان نفترض وجود نقطة ثابتة بين « القديم » و «الحديث » ، ننتقل منها الى افتراض وجود بيئة ثابتة نتيجة للتوازن آنذاك . وهذه طريقة لتبسيط التعقيدات الكامنة في هذا الموضوع ، وذلك بان نفترض جدلا ان البيئة تظل ثابتة عند تلك النقطة، بينما القوى البشرية تمضي في تقلباتها . وللدلالة على ذلك يمكننا القول بان ما يهمنا في الموضوع هو البيئة القديمة والبيئة الحديثة، بغض النظر عن فترة الانتقال بينهما – وهي الفترة التي خلت من التخطيط والتي كان يعتمد فيها على مبدأ التجربة والخطأ . وبعبارة اخرى فان تلك الفترة ، بالرغم من انها كانت لها بيئة ، الا ان هذه البيئة لم يتوفر لها الوقت الكافي حتى تستمر . ونجد امثلة على هذا النوع من البيئة في المدن التي تجري فيها عمليات اعادة التنظيم بسرعة ونشاط ، مثل الكويت وبيتسبرغ ولندن ، حيث لا تزال البيئة في تطور مستمر .

وينطبق هذا الوضع على عدد كبير من المدن الاوربية التي لم تستكمل تطورها التنظيمي بشكل طبيعي . ولن يكون من الانصاف ان نحكم على مظاهر ومميزات البيئة قبل ان نعطي عملية التنظيم الوقت الكافي لتقدم انتاجها – في الكويت مثلا ، تجري عملية تطوير المدينة القديمة ، وفي شيكاغو يعاد بناء المدينة القديمة ، وفي ميونيخ كذلك . وهذا لا يعني انه ينبغي تجاهل البيئة في الوقت الذي يتم فيه هذا التحول ، لان ذلك يناقض مبدأ عمومية البيئة ، ولكنه مجرد وسيلة تساعد على تحديد بعض النواحي المختلفة فيها .

وعلى وجه العموم فان العوامل التي تؤثر في تكوين البيئة تقسم الى فئتين رئيسيتين : العوامل الداخلية والعوامل الخارجية . ونعني بالعوامل الخارجية العوامل الطبيعية، مثل المواد والنواحي المنظورة والمحسوسة؛ وبالعوامل الداخلية نعني النواحي التي تكمن في اعماق الانسان ، وهي نزعاته ومشاعره النفسية وقيمه واذواقه الخ ، بالنسبة الى تنظيم المدينة ، الامر الذي يختلف تماماً في كل فرد عنه في الفرد الآخر . وهذه الناحية هي الاصعب تحديداً ، لانه لا يوجد مقياس علمي عام يمكن ان تقاس به امكانيات وطاقات الفرد للعمل او رد الفعل عنده تجاه الموضوع ، الا في حدود ما توصلنا اليه كبشر يخضعون لانظمة من صنعهم تحكم قواعد السلوك الاجتماعي – تلك القواعد التي يعتبر تطبيقها شاملا ضمن اطار المجتمع اذا لم يكن ضمن الاطار الحياتي والنفسي للافراد .

اما من ناحية العوامل الداخلية فلا حاجة لتأكيد اهمية المزايا السلوكية للافراد في هذا الموضوع الحساس . فالبيئة والنشأة والقوانين والاخلاق والآداب العامة وما شاكلها ، هي جميعا عوامل تكييف تلعب دورا فعالا

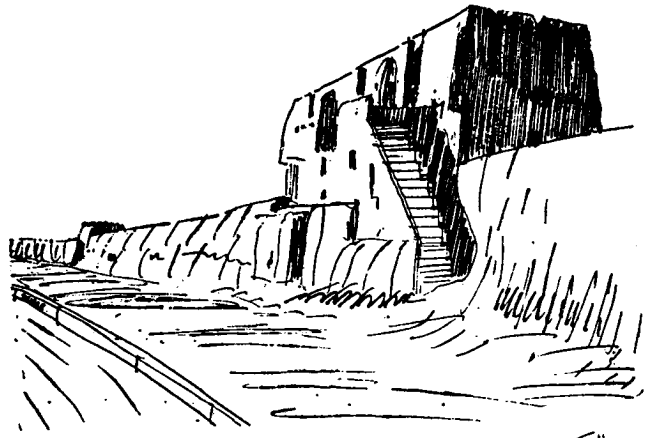

● الكويت

في تصرفات الافراد ، الارادية وغير الارادية ، عندما يحددون مواقفهم في ميدان تقييم بيئة المدينة وايجادها وتكوينها – ذلك الميدان الذي نسميه ، لغرض التبسيط ، ميدان التجميل ، حيث تبرز النواحي العاطفية والنفسية بالاضافة الى النواحي الطبيعية .

وهذا الميدان واسع ومعقد جدا ، ولكن بالرغم من هذا فانه في كثير من الحالات تبرز فيه استنتاجات متجانسة للتفاعلات المتشابهة. فلماذا يحدث ذلك ؟ وكيف يحدث؟ ولمن يحدث ؟ ومتى يحدث؟ وبالاحرى ، ما الذي يحدث؟ ان هذه اسئلة وجيهة يجيبنا عليها علماء الجمال. فنحن لا نستطيع الخوض في مجال تشعب مظاهر السلوك الانساني او البحث في نظريات علم الجمال كعلم قائم بذاته ، ولكننا نكتفي بالقول بان الاجابة على هذه الاسئلة تقع في الغالب بين اقصى طرفي القضية بالرغم من ان هذا الافتراض يتسم بطابع تخميني محض لا يستند الى اي اساس علمي .

فالمدينة تشمل من الناحية الطبيعية معالم تدخل في تركيب بيئتها ، ويمكن تقسيم هذه المعالم الى فئتين : طبيعية واصطناعية . ونعني بالمعالم الطبيعية القسمات الجغرافية والطوبوغرافية والعوامل المناخية ؛ بينما تشتمل المعالم الاصطناعية على آثار التاريخ من جهة ، وانجازات الانسان ، كالمباني والجسور والشوارع والاقنية ، مضافا اليها شرائع المجتمع التي تتمثل في القوانين والانظمة والعادات ، من جهة اخرى. وهذه المعالم لا يمكن ان تنفصل عن بعضها البعض، حيث ان المدينة لا يمكن ان تقوم ما لم تتحد المعالم الخارجية والداخلية سويا، في الوقت الذي تتأثر فيه المعالم الخارجية الى حد كبير بالمواد الخام ، اعني المواد الطبيعية في الموقع. ومع ذلك فلا شك ان العوامل الداخلية لها اثر كبير على ما يقوم به الانسان لتشييد المدينة ، فان من الواضح تماما ان المدينة التي تقام على ارض منبسطة تكتسب بطبيعة الحال خصائص معينة تميزها عن المدينة التي تقام على ارض جبلية. وتبعاً لذلك نرى المدينة المبنية في جزيرة تختلف عن المدينة الساحلية او المدينة التي تقام على ضفة نهر، كما ان المدينة الواقعة على خط الاستواء تختلف تماماً عن تلك التي تقام على جبال الالب . وكذلك المدينة المعاصرة التي تم نموها على مراحل منذ قديم الزمان تختلف الى حد كبير من حيث تكوينها الطبيعي عن المدينة الحديثة التي نشأت من لا شيء والتي تمت بسرعة هائلة لسبب او لآخر .

اذاً نستطيع ان نقول ان الميزات الطبيعية، كالطوبوغرافيا والجيولوجيا والارتفاع ودرجة خط العرض وتجمعات المياه والاخضرار والتربة ، لها علاقة مباشرة واثر كبير على تكوين البيئة : اذ هل كانت زوريخ ولوسيرن وغيرهما من المدن السويسرية لتملك السحر الذي يتوفر لها حاليا ، بدون تلك البحيرات القريبة منها والانهار التي تصب في تلك البحيرات والجبال المحيطة بها ؟ وهل كانت القاهرة وباريس وبوسطن لتكون كما هي عليه الآن لو لم تكن ضفاف الانهار التي تخترق هذه المدن جزءا هاما من اجزائها ؟ وهل كان يمكن لبيروت ان تكون هكذا بدون موقعها الطبيعي ؟

لننظر الى الاكواخ التي يقطنها سكان المناطق المتجمدة ، والخيام التي يعيش فيها سكان المناطق الحارة ، وتجمع هذه وتلك بشكل يوجد بيئة خاصة لكل منهما . ولنتصور ايضا المدن الاوربية القديمة ومدن الشرق الاوسط التي نمت وتجاوزت حدود اسوارها القديمة ولكن بشكل لا يختلف عن تكوين اجزائهـــا القديمة . ويظهر ذلك جليا للغاية في مدن كالقدس ودمشق والقاهرة وروما ، حيث لا تزال معالم الاسوار القديمة بادية للعيان بكليتها او بجزء منها ، مع العلم بان مثل هذه الاسوار قد تلاشت في بعض المدن الاوربية مثل فيينا ولكن حلت محلها السياجات التي لا يمكن انكار ما لها من اثر على بيئة تلك المدينة في الوقت الحاضر . وهذا الشيء بعينه ينطبق بحق على «الحزام الاخضر» والطرق الدائرية لمدينة الكويت الصحراوية الفريدة في نوعها.

ان الطبيعة تلعب دورا اساسيا في تكوين كل مدينة تقريبا . وبناء عليه نقول ان العوامل الطبيعية التي تلعب دوراً هاما في تكوين مظاهر المدينة تكون في كثير من الحالات هي نفس العوامل التي تقرر موقع هذه المدينة . فالبيئة الخارجية لمدينة نيويورك وجزيرة مانهاتن وامتداد الميـــاه حولها كانت السبب في اختيار الهولنديين القدامى لهذا الموقع بالذات مسكنـا لهم ، ولا تزال هذه البيئة نفسها تضفي على المدينة والجزيرة جلالها المهيب المتمثل في ناطحات السحاب والجسور والكورنيش وخليج هدصن – وهي بيئة ممتازة بامتدادها بقدر ما تمتاز البيئة الداخلية للمدينة بكونها فريدة النوع . ولا يجدر بنا ان ننسى اثر المنـــاخ على بيئة المدينة . فالامطار والضباب والرطوبة والحرارة واشعة الشمس والغيوم والجفاف – كل هذه تلعب دورها في تكوين البيئة . فاستمرار وجود الضباب وسقوط رذاذ المطر يتميز به جو مدينة لندن ، والجفاف وصفـــاء الجو من مميزات مدن حوض البحر الابيض المتوسط، والحر اللافح والرطوبة تتصف بهما مدن الخليج العربي. ويؤثر المناخ كذلك على الهندسة المعمارية ، وعلى عادات السكان التي تؤثر بدورها في تكوين البيئة . ولنتخيل الاماكن المكشوفة والمظللة في احد شوارع مدينة ما في الشتاء وفي الصيف ، وكيف يتجمهر النـــاس في هذا

● المغرب

الجانب ويبتعدون عن ذاك او يتركون هذا ويلجأون الى ذاك .

ونكتفي هنا بهذا القدر من الامكانيات التي تقدمها الطبيعة لانشاء المدينة ، ولننتقل لبحث مـــا يقدمه الانسان . فهنا قوة غامضة ومعقدة تستخدم طاقاتها المدمرة والخلاقة ، منفصلة احيـــانا ومجتمعة احيانا ، لايجاد البيئة الطبيعية التي تبدو اكثر وضوحا في المدينة منها في الريف، لان هذه القوى تكون اكثر تركيزا في المدينة ، — اذ ما دام الانسان يجري وراء منفعته العامة فانه يؤثر شعوريا او لا شعوريا في البيئة الطبيعية التي يعيش فيها وفي الاشخاص الذين يختلط بهم . غير ان النتائج التي يحققها لا تكون عادة نتائج مثالية ، لان هنالك فرقا بين ما يحققه الانسان وما يصبو فعلا الى تحقيقه . انه حر في عمل ما يشاء ، ولكن ضمن حدود القوانين والاعراف والعادات التي فرضها عليه المجتمع، ووفقا لما تسمح به الظروف والامكانيات والقوى العاملة والمواد الخام وخصائصها . وحينما تمارس هـذه العوامل اثرها مجتمعة ، يكون الانسان قد اوجد شيئاً — جسرا او بيتا او شارعا او عامود مصباح كهربائي او اشارة مرور او مسجدا او كنيسة او مدرسة او مكتب بريد او ممرا او حديقة او نصبا تذكاريا او نافورة ، ومـا الى ذلك . وبالحقيقة يكون قد اوجد مدينة ، سواء اكانت مدينة كبيرة ام ضاحية .

ان منجزات الانسان تتألف من الاشياء الملموسة : من الخشب والحجارة والمعدن والزجـــاج والاسمنت والطوب ، الخ . في الازمنة السابقة كان استعمال مواد البناء ينحصر في المواد المتوفرة آنذاك ، فسكان مـا بين النهرين كانوا يستعملون الآجر المجفف تحت حرارة الشمس، وسكان بلاد اليونان كانوا يستعملون الرخام، كما ان سكان المستعمرات الامريكية استعملوا الخشب لبناء بيوتهم ، وسكان فلسطين استعملوا الحجارة. وتبعا لذلك كانت مظاهر المدينة تتقرر الى حد كبير بوجود المواد الاساسية للبناء. اما اليوم فلم يعد الانسان يعتمد كليا على وجود المواد محلياً ، ولذلك نجد مظاهر المدن الحديثة في تغير تدريجي مستمر، اذ ان زيادة استعمال المعدن والزجاج والاسمنت وانتاج هذه المواد بكميات هائلة وسرعة توزيعها بفضل توفر وسائل فعالة للنقل، قد احدثت تغيرا جذريا في بواطن المدن الحديثة وظواهرهـا . وقد بلغ انتاج هذه المواد درجة كبيرة بحيث اصبح استعمالها عاما في كل مدينة او قرية او ضاحية . ونخرج من هذا بنتيجة واضحة ، وهي ان الانسان يصوغ ويكوّن ويصنـع هيكل بيئته بنفسه وباقصى ما يملك من جهد ، مواجهـا في ذلك كثيرا من العوامل الحقيقية . فهو يوجد البيئة الملائمـــة الجديرة بالتقدير ، والبيئة الوسط التي لا تحظى بكبير اهتمام ، ثم البيئة السيئة التي لا تسترعي الانتباه .

ان ما نتحدث عنه هو المنجزات الملموسة التي حققها الانسان ، فنحن نتكلم عن الهندسة المعمارية بشتى فروعها— عن الشوارع الفخمة والازقة المظلمة، عن القصور والاكواخ ، عن المدن الكبرى والقرى الصغيرة، عن سكة الحديد وعن الساحات المترامية وعن مركز المدينة . نتحدث عن الشارع المحـــاط بالحوانيت على الجانبين وعن السوق الرئيسي الكبير في المدينة وعن المناطق السكنية الفسيحة والاحيـاء المزدحمة . ان كل هذه الاشياء هي من صنع الانسان الذي تتفاوت قدراته وطاقاته من التلفزيون الى الطاقة الذرية الى الصواريخ يطلقها الى القمر : ومع ذلك فهو عاجز عن ان يعالج ذلك السرطان الاجتماعي الوبيـــل : الحي القذر ، عاجز عن تنظيم حركة المرور بشكل جميل ، وعن ايجاد ساحات صغيرة يخصصهـا لتجميل المدينة ليبث في الناس السرور والارتياح بعيدا عن المنفعة الشخصية والكسب المادي .

ويجدر بنا هنا ان نؤكد اهمية الهندسة المعمارية والتقنولوجيا، وننوه بالدور الذي تلعبانه فيتكوين البيئة، اذ انهما من المقدمات الهامة لفكرة وجود البيئة . فـاذا اخذنا مثلا هيكل بانكوك والجدار الزجاجي لمبنى هيئة الامم المتحدة في نيويورك، للاحظنا فروقا شكلية محسوسة واخرى نفسية شعورية تكمن في الشكلين. هذا بالاضافة الى انه برزت حديثا تصاميم هندسية مبتكرة لا نجد الوقت الكافي لتقدير مدى اثرها في نفوسنا من الناحية العمرانية والجمالية على السواء ، ومع ذلك فاننا لا نعدم وجود شعور لدينا بان هنالك تغييرا ملموسا يوشك ان يطرأ على مدننا وعلى بيئاتنا الاقليمية ، اذ يبدو لنـــا ان الجو وحده هو الحد الذي يضعه المهندس المعماري لميدان عمله . وعندما نتأمل في امكانيـات الالوان ومواد البنـــاء الصناعية الجديدة فانه سرعان ما

● الخيمة العربية

● حضرموت

● القدس

يتبادر الى اذهاننا ان عيوننا سوف تبذل جهدا كبيرا لتتكيف حسب الالوان والتصاميم والاذواق الجديدة التي ستوجد دون شك عنصرا جديدا في دنيا العمران ، الا وهو طواعية ومرونة الهندسة المعمارية . وهذا ما يحدد الى مدى بعيد احاسيس الافراد تجاه البيئة . وعندما نذكر المهندسين المعماريين لا نغفل في الوقت ذاته مهندسي الحدائق العامة والمنتزهات ومهندسي المناطق الصناعية ومهندسي المرور ثم النحاتين والرسامين والسياسيين . ان جدول اعمال مهندسي التنظيم المشتغلين بتنظيم مدننا وقرانا التي تتألف منها بيئتنا ، جدول غير محدود. فهم يقومون بادوار تنظيمية وعمرانية وسياسية لتحسين بيئاتنا، غير ان منجزاتهم هذه قد تحسن البيئة احيانا وقد تشوهها احيانا اخرى. ومن هنا لا نستطيع ان نغالي في تقدير قيمة مسؤولية ودور مهندس التنظيم في هذا العمل المعقد. ثم ان الانشاءات والآراء العمرانية المتطورة المجسمة في مبنى هيئة الامم المتحدة في نيويورك او عمارة ستاركو في بيروت، اضفت على البيئة احاسيس جديدة واصبحت مثلا يحتذى بالنسبة للمناطق المجاورة . وقياسا على هذا ، من يستطيع ان يقدر مدى اثر منشآت خليج بوسطن الجميل عند المشاهد اذا ما قارنه بمنظر مركز المدينة الصاخبة ، او يتصور كم تكون جميلة المنطقة التجارية المركزية في الكويت اذا ما اعيد تنظيمها ؟

وجدير بنا ايضا الا ننسى ان وراء هذه التغييرات ، التي يترجمها الى اعمال فريق المهندسين المعماريين ومهندسي تنظيم المدن، قوى هامة جدا: هي حاجة الانسان والعقل المتحضر والوعي الاجتماعي والاعتبارات السياسية والمنفعة الشخصية مع شيء من حب المغامرة. هذه هي القوى — محسوسة او غير محسوسة، حقيقية او خيالية، رفيعة او وضيعة — التي تعمل اما منسجمة او متنافرة. وما البيئة الا التعبير المادي الصريح عن نتاج هذه القوى المتصارعة او المنسجمة . وكلما تقدمنا في فهم هذه القوى ازددنا نفاذا الى غور الاساليب المعقدة التي يتم بها تكوين البيئة الجميلة المتسقة والقيمة الجمالية الملازمة لها. ومن حسن الحظ ان التقدم في هذا الاتجاه قد قطع

شوطا بعيدا بفضل ذلك الجيش الكبير من المصلحين ومهندسي التنظيم وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والمهندسين المعماريين وغيرهم .

لقد اقتصر بحثنا الى الآن على المدينة بصفتها كيانا تاريخيا جغرافيا يملك ميزات معينة ناشئة عن صفات جوهرية او عن تجارب وتصاميم واعمال قام بها الانسان . ومن المؤكد ان هذه التجارب والاعمال غير منفصلة تماما عن القوى الاخرى الخارجة عن نطاق سيطرة الانسان . ولا حاجة بنا في هذا المجال ان نخوض في جدل فلسفي عما اذا كان الانسان سيد اعماله ام لا. ويكفينا القول بان الانسان يفعل ما يفعله ضمن حدود معينة من العرف والقانون والعادة ، ولا بد والحالة هذه من ان تطرأ عليه ظروف تكون في كثير من الاحيان خارجة عن نطاق سيطرته . هذا هو نصف القصة بالنسبة للبيئة ، والنصف الآخر الذي يعادله في الاهمية هو الانسان نفسه . فمما لا شك فيه انه لا يوجد شخصان اثنان يتأثران نفس التأثر لدى مشاهدتهما ظاهرة كسوف الشمس مثلا ، كما يقول علماء النفس، بالرغم من ان علماء الفلك يستطيعون ان يحددوا بالضبط موعد وقوع الكسوف . وعليه يمكننا القول بانه توجد في العالم تأثرات تجاه البيئة بقدر ما فيه اناس . واذا كان الامر كذلك فانه يترتب علينا ان نعد من الابحاث عن البيئة ما هو مساوٍ لعدد سكان العالم !

ومن ناحية اخرى لا يزال كثير من الناس يعتقدون بان البيت المبني على النمط القديم مريح اكثر من البيت الحديث . لذلك لا غرابة ان نجد ان كثيرين من سكان مدينة وشنطن من المقيمين خارج قسم جورجتاون من تلك المدينة يودون لو تتاح لهم الاقامة في هذا القسم ويغبطون ساكنيه على حسن حظهم في الاقامة هناك. ومثل هذا الوضع موجود في معظم مدن العالم . وما يقال عن هذه يقال ايضاً عن الساحات العامة في روما وفي سواها . وهذا الشعور العام لدى سكان هذه المدن بانها ذات بيئة جيدة ، لا يستند الى اي اساس علمي ، خاصة اذا علمنا ان مناطق السكن الفسيحة والاقل ازدحاما من سواها غالبا ما يشار اليها بانها تفتقر الى مقومات البيئة العصرية. فهل يعود ذلك الى نواحٍ اجتماعية معينة تطغى على تفكير السكان، ام انه مجرد اعتقاد بان المدن تزداد اتساعا مع الزمن وتكتسب ميزات خاصة من الجمال والسحر والالفة ؟ فاذا صح ذلك فلا بد ن نستنتج ان الزمن وحده هو الذي يكون البيئة . وهنا لا يسع المرء وهو يتأمل هذه الفكرة الا ان يعيد في مخيلته ذكر المناطق السكنية المزدحمة التي سبقت الاشارة اليها على انها ذات بيئة جذابة وان المناطق

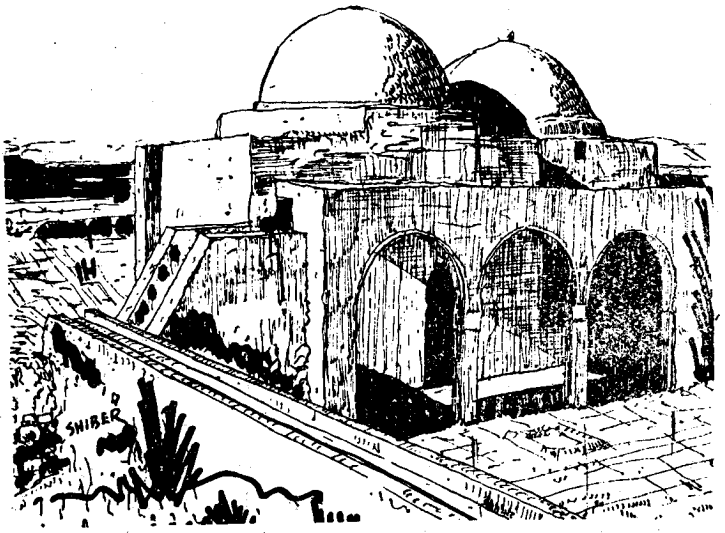

● تونس

الفسيحة لا يمكن مقارنتها بها . وهذا لا يعني بالطبع الاماكن المزدحمة التي تنتشر فيها الاقذار وانما الاماكن النظيفة فقط . على ان الدراسة النفسية والاجتماعية للسكان قد تلقي بعض الضوء على مختلف النزعات السائدة لدى بني البشر — وهي نزعات لا تحددها مقاييس معينة او آراء .

وقد برزت هذه الصفة بصورة خاصة في الاحياء القديمة من المدن العربية . فالاسواق العامة والميادين والساحات والاماكن المزدحمة والاحياء السكنية القديمة تعتبر لدى سكانها اكثر جمالا وروونقا من المناطق الفسيحة المنظمة التي جهد المهندسون غاية الجهد لجعلها جميلة جذابة. ولنأخذ مثلا الاحياء السكنية الجديدة في بيروت (وهي مزدحمة طبعا) وفي الكويت (حيث لا ازدحام) وفي دمشق (كثافة السكان معتدلة) ، لنجد انها رغم حداثتها ومجاراتها لانظمة السكن الحديثة لا تقارن من وجهة نظر سكان تلك المدن بالسحر والجاذبية التي تتمتع بها بيئة الاحياء القديمة في المدن نفسها . فسكان بيروت يعتبرون المناطق السكنية القديمة المحاذية للبحر في مدينتهم اجمل الامكنة هناك ، بينما ينظرون الى المباني الجديدة وكأنها تشوه منظر البحر الجميل . وفي الكويت ايضا ، بالرغم من ملايين الدنانير التي انفقت في بناء هذه المدينة الصحراوية ، فانه لا توجد فيها ، من وجهة نظر سكانها ، منطقة تضاهي الواجهة البحرية على « السيف » القديم ، لا من الناحية الجمالية ولا من ناحية البيئة . وفي دمشق لا يقارن سحر وجمال « ابو رمان » بالمنطقة المحيطة بجامع امية . وهذا لا ينطبق على شواطىء البحر الابيض المتوسط والخليج العربي فحسب وانما ينطبق ايضا على شواطىء المحيط الاطلسي حيث تقع طنجة والدار البيضاء. وهذه الظاهرة اذا ما تم تحليلها من ناحية سيكولوجية يمكن ان تفسر على انها التعلق بالموروث والحنين اليه ، اذ ان المدينة الحديثة تفتقر الى التقارب الانساني وليست لها البيئة الاجتماعية المتوفرة للمدينة القديمة. فمدينة البندقية لا يمكن ان تكون كما هي لو كانت مزدحمة بالسيارات ومليئة بالطرق المتفرعة كما هو الحال في الكويت .

ويقودنا هذا الى الاستنتاج بان هنالك احاسيس عامة متشابهة لدى البشر تتفاوت في درجة مرونتها ولكنها تتفق الى درجة انها تبقى ، وتكمن وراءها عدة اعتبارات جديرة بالدراسة والبحث ، اذ ان الانسان مجموعة فريدة من الاحاسيس والآراء والنزعات والافكار ذات الابعاد الشاسعة والاغوار العميقة .

وللشروع في هذا التحليل يمكننا الافتراض بان الامريكيين ، على سبيل المثال ، يأنسون الى بني جنسهم اكثر مما يأنسون الى الهنود او الصينيين مثلا ، وكذلك الالمان بالنسبة للفرنسيين ، وهكذا . ففكرة التآلف والعيش مع الجماعة لها اثرها الفعال على الناس بالنسبة لتأثرهم بالظواهر الخارجية المتماثلة . فالمجتمع يفرض على الافراد قواعد واعرافا وعادات كثيرة ، عدا عما تفرضه العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التي تميز شعبا ما عن آخر ؛ وعندها تلتقي الجماعات المتشابهة في المفاهيم والعادات والنظم ، في حين ان النواحي العلمية والعملية لهذه الجماعة او تلك قد تتفاوت الى حد كبير .

وتزداد هذه العملية تعقيدا (او تبسيطا) بعملية الانخراط في البيئة او توارث العادات والتقاليد عن الآباء والاجداد ، وهي عملية مستمرة وبالغة التعقيد. فحين تنشأ لدى الواحد منا بعض الاذواق والميول فانه يحاول التعبير عنها بصور مختلفة ، كالبناية مثلا ، وبذلك يزيد العملية تعقيدا بادخال عنصر جديد . وطبقا لقانون المعدلات نجد ان بعض مظاهر بيئتنا تتفق واذواقنا ولذلك نحبها . الا ان هذا التعليل هو تبسيط للامور اكثر مما يجب .

واذا تابعنا التحليل من هذه الناحية ندخل بالضرورة الى علم اللغة وعلم تطور معاني المفردات ، لنؤكد انه لا توجد تعابير مسلم بها تحدد بالضبط انفعالات وتأثرات الافراد . لذلك يكون من الانسب ان نبحث ما يعتقد بانه ظواهر عامة نتأثر بها جميعا بصور مختلفة .

ان مبدأ السلامة والاطمئنان ، جسديا واقتصاديا ، مبدأ عزيز وقريب الى كل قلب . فالسلامة ترتبط بها عناصر البقاء ، كالغذاء والراحة والمأوى والعمل والوقاية الصحية والتآلف مع الجماعة . فنحن نشعر بالضياع اذا ما كنا في وسط صحراء او محيط ، او نشعر على الاقل بعدم الاطمئنان ، ولكن ما ان يبدو لنا شيء محسوس في تلك المتاهات المخيفة ، كساري سفينة مثلا او شجرة نخيل ، حتى نبدأ نسترد اطمئناننا .

● اليمن

وفي اعتقادي ان طباع الفرد وتصرفاته تتأثر بالجو العام للبيئة التي يعيش فيهـــا سواء كان ذلك بوعي منه او بدون وعي ، وكل عنصر من عناصر ذلك الجو له اثره الخاص بالنسبة للفرد .

وهكذا لا بد ان تكون احاسيس الافراد تجاه شيء مـا مختلفة عن بعضهـــا نظرا لاختلاف الجو الذي يكتنف البيئة التي يعيشون فيها. فالشعور بالوحدة شعور ودي الى الحد الذي يبدأ عنده الملل والضيق . وفي المدينة نجد ان للجو وتفاعلاته ولانسجام الجو واتزانه اثراً على تصرف الفرد بهذا الشكل او ذاك تجـــاه بيئته وعلى خلق حالات نفسية مختلفة عنده .

وهنالك صفة اخرى يتميز بها الانسان، وهي ميله الى قياس الاشياء بالنسبة لحجمه هو وبالنسبة لامكانياته في تفسير وتكييف المحيط الذي يعيش فيه . فاذا ما صادفته عقبة لا يستطيـع التغلب عليها فانه يشعر بالقلق والضيق النفسي والنقمة . وهنـا يأتي دور المقدرة على تكييف نفسه حسب البيئة ، وقد تطول هذه العملية ويطول معها تقلب الحالات النفسية والانفعالات والتصرفات . فمقياس البيئة وتدرج هذا المقياس من عنصر الى عنصر وانسجام التحول ونسبية المقاييس ـ كل هذه ظواهر متقلبة بالنسبة للانسان . وينشأ هذا التقلب من التغير الطفيف الذي يحدث في زاوية الرؤية عند الانسان ـ هذا اذا اغفلنا اثر التغيرات التي تطرأ على وضعه.

وهذا الاحساس المتقلب لا يفقد ايا من عناصر المشهد نفسه ، اذ ان مـا يفتقد شعوريا يلتقط ويسجل لا شعوريا . ولا حاجة للقول بان الاشجار وارصفة الشوارع والاضواء الخفاقة واعمدة اشارات المرور والمباني والناس ، كل هذه تدخل في الصورة لتنعكس كلها على شاشة الرؤية . وتضاف الى هذه عناصر اخرى تزيد من اثرها لدى الفرد ، وهذه العناصر هي صفاء الجو ولمعانه والظل واللون والسطوح العاكسة . ولنأخذ مثلا واحدا على هذه العناصر واثرها ، وذلك بملاحظة تغير جو المدينة خلال النهار حيث صخب الناس والسيارات

واثناء الليل خاصة اذا كانت انوارها غير موزعة بالشكل المناسب . ولنلاحظ في هذا الحـــال تقلب حالات الناس نفسيا وتغير نظرتهم للجو حينما تكون المدينة تزخر بالصخب والضجيج وحينما يخيم عليها السكون .

ان منظر المدينة ليلا ، وجوّهـــا في الليل حيث تكون الاحياء مضاءة بانوار مختلفة ، يبرزان الدور الحساس الذي يلعبه اللون والضوء في تكوين بيئة المدينة . وهذا ينطبق ايضا على «صوت» المدينة ، او بعبارة ادق « ضجة » المدينة . فهل يصح الاستنتاج بان اصوات المدينة ، اعني ضجيجها ، تسهم في تكوين بيئتها ؟ نقول نعم ، دون ان نحاول التغلغل في هذا الموضوع .

اما فيما يتعلق باللون فهناك اختلاف بيّن في البيئة داخل المدينة وخارجها . ويبدو ذلك بصفة خاصة في بعض المناطق حيث يتغير لون الاشجـــار بدرجة ملحوظة ، ويبدو هذا التغير ظاهرا حين تتعرى تلك الاشجار من اوراقها فتترك المدينة جرداء الى حد ما . وهذا ما يلاحظ بصفة خاصة في مدينة وشنطن المسماة بمدينة الاشجار : فهذه المدينة يتغير مظهرها وبيئتها عندما تتعرى اشجارها في الشتاء ، تماما كما يتغير مظهرها تبعا لكون الكونغرس منعقدا او غير منعقد . ان هذه العناصر الصغيرة لا حصر لها . ولنورد امثلة قليلة على هذا ، نذكر نيو اورلينز في آخر ايام الكرنفـــال ، والكويت خلال الصيف ، وكافة المدن خلال ايام الاحتفالات حين تكون مزدانة بمختلف انواع الزينة .

وهنا تدخل الصفات الانسانية في الموضوع . اذ عندما يرى المرء مدينة جديدة لاول مرة يتكون رأيه بالنسبة لها ويحدد موقفه منها . فان تجاربه فيها (سهولة التنقل ، ومعاملة الناس له ، ووجود الاصدقـــاء والاقارب فيها ، الخ) تساعد الانسان الغريب على تكييف نفسه حسب البيئة الجديدة التي يجد نفسه فيها. وهذه ظاهرة مهمة جدا ، اذ كثيرا ما نسمع النـــاس يقولون : « لقد عشنا في ذلك المكان سنوات عديدة ولكن لا فائدة منه» ، بينما يقول الآخرون: « نحسّ وكأننا عشنا هنا العمر كله » . وعلى الرغم من ان هذا المقياس ليس مقياسا موضوعيا للحكم على بيئة مدينة ما ، الا انه عنصر هام في تحديد موقف الفرد من الجو

الموضوعي للمدينة التي يعيش فيها .

وهنالك عوامل شخصية واجتماعية لها اثرها الكبير في تحديد آراء الفرد وحكمه على الوضع الجديد الذي يجد نفسه فيه . فالاشياء التي رافقت طفولته ، والقيم الاجتماعية السائدة في بيئته ، هي التي توحي اليه كيف يجب ان تكون البيئة الجميلة . وهنالك حقيقة ثابتة يمكن ان تقدم دليلا على هذا الاتجاه ، وهي ان فئة معينة من المجتمع ، كالفنانين مثلا ، غالبا ما ترغب في الاقامة في احياء معينة من المدن ، وهذه الحقيقة تعكس دون شك تلك النزعة الانسانية التي تجعل المرء يألف شبيهه في الرأي والعادة والمهنة اكثر مما يألف الآخرين. ويضاف الى ذلك ان المستوى العلمي للفرد ، والاوساط الاجتماعية التي يتنقل بينها ، وآراءه الشخصية في الحكم على الامور ، قد تنشط او تضعف قدرته على ملاحظة بيئته وتقييمها ونقدها . غير انه لا ينتج عن ذلك بالضرورة ان الانسان ذا الموهبة الفنية يكون في الغالب اكثر تحسسا لبيئته. بل ان الواقع هو ان مواهب الفرد تضخم بالنسبة له تلك العناصر التي يميل اليها بحكم طبعه . وهو مبدأ عام ينطبق على جميع الناس ضمن القرائن العامة.

ان سيكولوجية الملاحظة قد تلقي كثيراً من الضوء على هذه الناحية من التشابه وعدم التشابه في الانفعالات. الا ان الطريق المؤدي الى النتائج المرجوة هو دون شك طريق شائك ومملّ . فهذا ميدان يتطلب بحوثا عملية دقيقة لا يستطيع مهندس التنظيم ذو الميول الفنية فقط ان يخوض فيها بالشكل الصحيح . انه ميدان واسع وجدلي ، اذ تشمل ابعاده تلك العناصر المعقدة، كالانسان ، والقيم الجمالية في مجتمع ديناميكي سريع التحول، والحكم على قيمة الشيء ، الخ . وهنا يبرز السؤال : هل يمكن لقوى الملاحظة والذوق الجمالي عند الانسان ان تقاس بمقاييس علمية ؟ ويجب ان تتم الاجابة على هذا السؤال على اساس الملاحظة والتجربة المستندتين الى اساس علمي. وتتشعب هذه التجربة مع الزمن نتيجة البحوث العلمية التي يجريها اكبر عدد ممكن من الباحثين ذوي الاتجاهات المختلفة على اكبر عدد ممكن من البشر .

وعلى الرغم من التقدم التقنولوجي الهائل الذي احرزه الانسان ، ومن التزايد الواسع في عدد المؤسسات المتجردة عن الاهواء الشخصية ، فان الناس لا يزالون عاطفيين . وهذا عامل هام جدا على ما نعتقد ، ولا نستطيع تعريفه او قياس ابعاده او تفسيره على الوجه الصحيح . فالحكم النهائي على الاشياء الجميلة ينبع من داخل الانسان نفسه — على الرغم من روعة الفن فيها ومن الفنانين الذين ابدعوها . وما الدوامة الحديثة (والقديمة ايضا) التي تكتنف الفن والموسيقى والرقص الا ظاهرة لا تفسير لها لكنها بدورها تفسر اللغز التالي : وهو لماذا يعتبر خليج باك بي في بوسطن ، مثلا ، غنيا بجمال البيئة بينما لا تعتبر المدينة الجديدة كذلك على الرغم من انها قد صممت على اساس علمي تنظيمي سليم ؟ ان هذا الامر ليعتبر تحديا كبيرا لمهندسي التنظيم ، اذ هل يفترض فيه ان « يبني» البيئة في المدينة الجديدة او في المنطقة المجاورة لها ؟ وهل بامكانه ان يفعل ذلك لو شاء ؟ واذا كان بالامكان تحقيق ذلك فاية بيئة عليه ان « يبني » ؟ اهي تحفة فنية ام لوحة زيتية ام تمثال منحوت لتناسب اذواق هواة الفنون الجميلة ؟ وهل يعني ذلك اننا لا نستطيع ابداً ان نوجد البيئة الساحرة الجذابة التي وجدت في غابر الازمان ؟

وهل المصادفة وعدم التخطيط هما اللذان يخلقان البيئة الجميلة المحببة الى النفوس؟ ام اننا تسرعنا في الحكم على منجزاتنا ؟ هل يمكننا اعتماد مبادىء معينة مستقاة من ملاحظات وتجارب الناس في الماضي حول بيئة المدينة وتصميمها المعماري ، وتطبيق هذه المبادىء على الحاضر ؟ اني لمتأكد من انه ما من احد يستطيع ان يؤلف مجموعة شاملة من التوصيات خلال تصميم المدن مثل تلك الآراء التي جسدت في بناء المدن الجديدة في انكلترا والسويد والبلدان الاخرى . وهذه المدن بتصاميمها الهندسية العتعددة ومظاهرها المنسجمة شكلا وقياسا ولونا وموقعا هي في نظر المهندسين المعماريين ذات ذوق هندسي رائع وتمثل اعلى ما وصلت اليه المحاولات العمرانية . ولكن ينقصها شيء ، ليس هو بالاتقان ولا البناء السليم ولا الساحات ولا حركة المرور المنظمة ولا المستوى الصحي . فهل هذه المدن منظمة اكثر مما يجب ، ام ان هنالك عاملا جذريا او مجموعة من العوامل الجذرية تفتقر اليها لدى مقارنتها بالريف الانكليزي مثلا وببعض الاقسام القديمة في المدن الكبرى في العالم ؟ فساحة هارفرد القديمة لها جو ساحر ولا تضاهيها في ذلك ساحة هاركنز الحديثة

فيها، بالرغم من ان الاخيرة قد صممت على احسن ما يكون التصميم .

ان هذه امور نشك في امكانيـة وجود تفسيرات سليمة لها ، اذ ان اية محـاولة لسبر غورها تأتي من وجهة نظر شخصية ومن جانب فردي . كأن نقول مثلا : ان بيئة المدينة هي نتيجة او صفة او حالة معقدة كامنة في المحيط الى درجة ان الانسان بكل تعقيداته يستطيـع استيعاب صفاتها والتفاعل معها .

وهكذا نرى ان المحيط يرتبط بالانسان ارتباطا مشروطا بسبب وجود الصفات التي يتميز بهـا المحيط والتي تفرض وجودها على الانسان وتجعله يتفاعل معها . واذا ما حاولنا على ضوء هذا التعريف ان نستعيد ما سبق ان ذكرناه ، فاننا نستنتج بواسطته بعض العنـاصر التي تميز البيئة وتسهم اسهاما فعليا في تكوينها .

وفي النهاية يمكننا طرح بعض الآراء التي قد تلقي ضوءا على هذا الموضوع ، ولها الى حد ما علاقة او اثر على تكوين بيئة المدينة : اولا ، الحدود السيـاسية : مثلا القدس العربية والقدس المحتلة ، وبرلين الشرقية وبرلين الغربية ، وخطوط الحدود بين الدول ، والحدود الوضعية في المدينة حيث تسود مختلف القوانين والعادات والتقاليد . ثانيا ، ميزة الملكية : ان طبيعة الاملاك في الاقسام القديمة من المدن ، على اختلاف وتعدد اشكال هذه الاملاك ، تؤدي الى نتيجة « غير منسجمة »، وقد تكون بذلك عنصرا من عناصر البيئة اذا ما قورنت بالاملاك الكبيرة المجمعة ضمن مخطط تنظيمي كبير . ثالثا ، العوامل التاريخية والدينية الملازمة للمدينة واثرهـا في تكوين البيئـة : مثلا الاماكن المقدسة في مكة والقدس وروما ، حيث من الصعب جدا تحليل البيئة فيها نظرا لشدة تعقيدها . رابعا ، المنجزات الهندسية والمدنية الهـامة : مثل كنيسة القديس بطرس في روما، وساحة كنيسة سانت ماركو في البندقية ، وربمـا مبنى هيئة الامم المتحدة في نيويورك ، ومبنى جامعة مكسيكو . خامسا ، التعمير والتجديد واعادة البناء : كما في زوريـخ ومدريد وكييف . سادسا ، ثروة المدينة : النهضة في مدينة فلورنسا والبندقية ، ثم التطور الصاروخي في الكويت وكراكاس. وفي جميع هذه الحالات اوجدت الثروة غير العادية عوامل لتكوين البيئة لها قيم جمالية متعددة .

ان البيئة حقيقة تستعصي على التحليل الدقيق . انها شيء ملموس ، ولكن من الصعب ان تلمسها اليد . انها دون شك صفة او ميزة كامنة في المدينة ، ومع ذلك فهي شيء محسوس يمكن ملاحظته والاحساس به بصريا وحسيا ونفسيـا وعاطفيا وروحيا وسلوكيا . وكل ناحية من هذه العوامل التي تساعد على فهم البيئة تستحق دراسة دقيقـة ومتخصصة ليمكن على ضوئها وضع مخططات افضل لتنظيم المدن في المستقبل . لانه اذا ما خططت مدن المستقبل بطريقة آلية ودون وعي تام لجميع العوامل التي تخلق البيئة الجميلة ، فان كثيرا من المزايا المستحبة والمظاهر الجذابة ستفقدها دون شك بيئة تلك المدن في صورتها العامة .

انتهت في آخر نيسان (ابريل) الماضي المسابقة التي نظمتها « حوار » للقصة القصيرة في البلدان العربية . وقد وجدت من الانسب ان تعطي جوائز ثلاثا لافضل ثلاث قصص، بغضّ النظر عن مصدرها ، بدلا من ان تعطي جائزة واحدة لاحسن قصة من كل بلد على حدة ، كما كانت قد اعلنت . وعهدت المجلة الى لجنة تحكيم للنظر في القصص المتقدمة للمسابقة ، تتألف من الاستاذ توفيق يوسف عواد (صاحب « الصبي الاعرج » و « قميص الصوف ») والدكتور عبد السلام العجيلي (صاحب « ساعة الملازم » و قناديل اشبيلية) والاستاذ جبرا ابراهيم جبرا (صاحب «عرق وقصص اخرى» و «صراخ في ليل طويل») .

وكانت النتائج كما يلي ، بناء على مجموع الاصوات : فازت بالجائزة الاولى (٤٥٠ ليرة لبنانية) قصة « المربي الفاضل » لميشال نقولا ، وبالجائزة الثانية (٣٥٠ ل.ل) قصة «العربة والرجل » لعبدالله عبد (وكانت الاولى في رأي الاستاذ عواد) ، وبالجائزة الثالثة (٢٥٠ ل.ل) قصة « حمروش » لسنية صالح . وستظهر هذه القصص تباعا في « حوار » ابتداء من هذا العدد . وقد اختار اعضاء اللجنة بعض القصص الاخرى التي وجدوها جيدة واهلا بالتنويه وبالمكافأة التقديرية — وهي : « نثيث المطر » لسلمان علي التكريتي (وقد رشحها الاستاذ عواد للجائزة الثانية) ، و « الباب الخلفي » لمحسن السنجري (وقد رشحها للثالثة) ، و « المدفع » لعبد العزيز هلال (رشحها الدكتور العجيلي للثانية والاستاذ جبرا للثالثة مناصفة) ، و « في الطريق الى الصحراء » لجورج سالم (رشحها الدكتور العجيلي للثالثة مناصفة) ، و « انت يا » لمصطفى ابو لبده (وقد رشحها الاستاذ جبرا للثانية مناصفة) ، و «الموت في الاعماق» لضياء الشرقاوي ، و «الغرفة » لجليل القيسي.